بيروت في عهد ابراهيم باشا المصري

واعمال الامير محمود نامي فيها

للدكتور اسد رستم

كانت بيروت في سنة ١٨٣١ م عند ما افتتحها ابراهيم باشا المصري مربعاً مستطيل الشكل طولها من مرفإها القديم بالقرب من زاوية الراعي شمالاً الى باب الدركة جنوباً ٧٥٠ متراً وعرضها من باب السراي شرقاً الى باب ادريس غرباً ٣٥٠ متراً وكان يحيط بها من جهاتها الاربع سور حقير متداع بناه عليها احمد باشا الجزار في اواخر القرن الثامن عشر يوم طمح الى الاستقلال والخروج على مولاه الامير يوسف الشهابي المشهور. وكان هذا السور يمتد من طرف قلعة البحر في شارع المارسلياز الى باب الدباغة على خط مستقيم تقريباً . ومن باب الدباغة الى باب السراي على شكل زاوية منثنية ومن هناك الى باب ابي النصر ومعبد (زاوية) ابي النصر المشهور تاركاً ثكنة ساحة البرج واسواق الجوهرين خارجة عنه والى شرقيه . وكان يتجه من معبد ابي النصر شرقاً الى باب الدركة وباب يعقوب غرباً ماراً في وسط الكنيسة الكتدرائية المارونية على خط مواز لشارع السراي ومن هناك كان يمتد الى باب ادريس وباب السنطية ماراً في طرف كنيسة الكبوشيين الشرقي وسوق الجميل اما سور بيروت الشمالي فان آثاره كانت تمتد من جامع المجيدية غرباً الى زاوية الراعي والقلعة شرقاً . وكان لسور بيروت في اوائل القرن الماضي سبعة او ثمانية ابواب منها باب السلسلة لمنع المراكب من الدخول الى الميناء وباب الدباغة وهو لا يزال قائماً بالقرب من جامع الدباغة وباب السراي وهو لا يزال على تمامه تقريباً بالقرب من مركز الحكومة اللبنانية (وقد هدم بعد كتابة هذا المقال) وباب الدركة وقد اندثر تماماً وباب يعقوب فباب ادريس وباب السنطية

وكان يعلو القسم الشمالي من سور بيروت ابراج مربعة ويدعم القسمين الغربي والشرقي منه دعائم وابراج يبلغ عددها الثمانية — منها برج الكشاف على بعد ١٥٠ متراً من زاوية المدينة الشرقية الجنوبية وفي مكان مسرح زهرة سورية اليوم والبرج الجديد بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية وبرج الحصن شمالي الحي والميناء المعروفين بميناء الحصن . اما برج

الفنار فانهُ كان مبنياً عَلَى الصخور في البحر عَلَى بعد خمسة وعشرين متراً من البر وكان بينهو بين الساحل جسر صغير قائم على قنطرتين متفاوتتي الكبر . وكان بالقرب من مقام الخضر على نهر بيروت برج اخر سماه واضع خريطة سنة ١٨٣١ برج الخضر . ولربما كان برج ابي حيدر وبرج العريس في المصيطبة من جملة ابراج بيروت المحصنة ايضاً

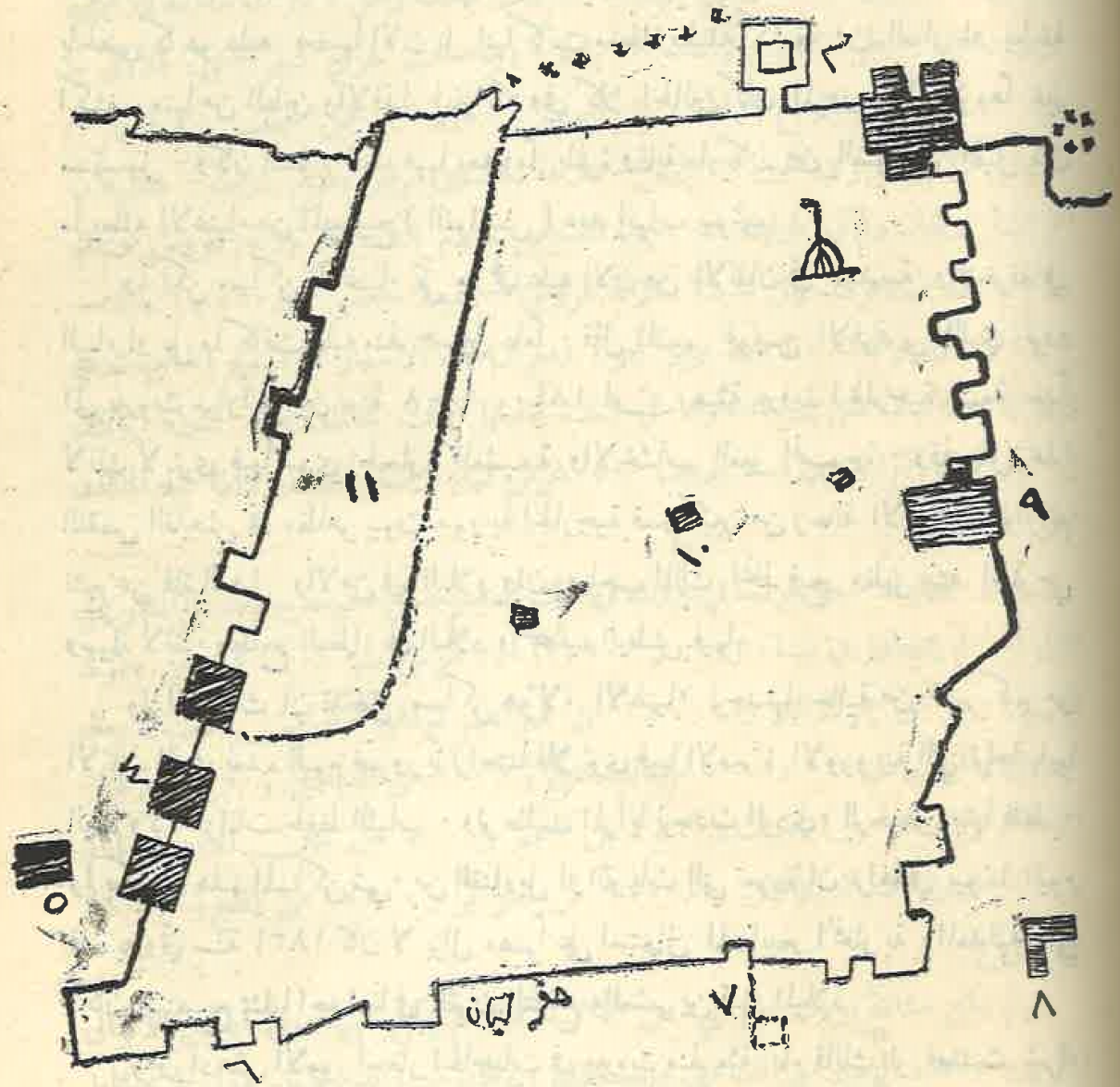

بيروت كما عرفها الاسطول الانكليزي عام ١٨٣١

(١) القلعة (٢) برج الفنار (٣) رصيف المرفا (٤) باب ادريس (٥) البرج الجديد (٦) باب يعقوب (٧) باب الدركه (٨) برج «الحشيش» البرج المشهور ببرج الكشاف (٩) سراي الامير فخر الدين (١٠) الجامع الكبير

ولم يكن في بيروت وقتئذٍ من المباني العمومية المهمة سوى سراي الامير فخر الدين في مكان سوق سرسق اليوم والجامع العمري الكبير وهو لا يزال كما كان والقلعة وقد اندثرت تماماً

اما اسواق بيروت في سنة ١٨٣١ فانها كانت مثل غيرها في سائر المدن الشرقية ضيقة معوجة تقاطعها الازقة والعطفات التي لا منفذ لها . ولم تكن مفروشة بالبلاط او مرصوصة بالحصى كما هو عليه بعضها الان بل انها كانت مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار او بطبقة اكثف منها من الطين والاقذار المتراكمة وفي كلا الحالين كان المرور فيها مكروهاً غير مستسهل . وكان التنوير العام فيها معدوماً بالمرة وغاية ما كان من الضوء في الليل كان ما يعلقه الاغنياء من المصابيح (الفوانيس) عند ابواب بيوتهم

ولم تكن مساكن الاغنياء عَلَى ما هي عليه الان من الاتقان في الهندسة والزخرفة في البناء او على ما كانت عليه منذ خمسين عاماً . قال المسيو غويس الافرنسي الذي تردد الى بيروت مراراً ما بين سنة ١٨٠٨ و١٨٤٠ ان هيئة بيروت الخارجية بشعة جداً لانك لا ترى فيها سوى الحجارة الغشيمة والاخشاب الغير الممسوحة . وقد علل هذا النقص الفاحش في مظاهر بيوت سورية الخارجية قسم كبير من رحالة الافرنج فقالوا انه نتج عن قلة العدل والامن في البلاد وان صاحب الملك اتخذ قبح مظهر بيته الخارجي وسيلة لاتقاء مطامع العظماء في البلاد واصحاب البطش فيها

ولو اتيح لك ان تدخل مساكن هؤلاء الاغنياء لوجدتها خالية من قسم كبير من الاثاث الذي نعده اليوم ضرورياً لراحتنا فلا ترى فيها الاسرّة الاوروبية التي تراها فيها اليوم ولا الخزانات لحفظ الثياب . ولو طلبت المرايا لوجدت الرديء الرخيص منها فقط . ولم يكن في هذه المساكن شيء من القناديل او الثريات التي تعودنا ان نراها في بيوتنا اليوم فان بيروتي سنة ١٨٣١ كان لا يزال مصراً على استعمال المصابيح الفخارية والمعدنية التي كان يستصبح بمثلها اجدادنا في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد

ومن ادهش الامور اسعار الحاجيات في بيروت منذ مئة عام فانك لو قصدت شراء ساعة لأخذتها بعشرة غروش ولو اشتريت الجدي لدفعت ثلاثة غروش فقط . ولحسن الحظ لا يزال لدينا في مكتبة جامعة بيروت الاميركية دفتر حسابات احد اعيان ساحل بيروت عن سنة ١٨٢٦ — ١٨٣٠ فيه دخل صاحبه وخرجه بجذافيرها وتمامهما[1] . وهاك

(١) احتفظ به الاستاذ عيسى معلوف وابتاعته منه هذه الجامعة مع سائر المخطوطات المعلوفية

بعض ما جاء فيه من اسماء الحاجيات واسعارها بالضبط : خرج شهر ايلول سنة ١٨٢٦ — حلاقة ٨ بارات — ابريق بارتان — ثقب ماسورة ٥ بارات — بيض ٣ بارات — باذنجان ٦ بارات — باميناديورا نصف رطل ٦ بارات — سماح بارة واحدة — صدقة بارة واحدة — باميه نصف رطل ٥ بارات — عنب نصف رطل ٦ بارات سكفة للاجيرة غرش واحد — طرحة بابوج لوالدتنا ٢٨ بارة . وجاء تحت خرج شهر كانون الاول ما يلي — غدا غرش واربع بارات ١٠٠ جوزة ٣٠ بارة — حمل حطب ٣٠ بارة — ماسورة ١٢ بارة كري طحين ٣٥ بارة — فلاحة المقصلين غرش وسبع بارات — منديلان للاجيرة غرشان وثماني بارات — اجرة القسيس خادم الكنيسة ثلاثة غروش وثماني بارات — زبل معزى كيل عدد ٦ ثلاثة غروش — ليمون حامض عدد ١٥٠٥٠ بارة — صدقة قداس لوالدتنا ٣٠ بارة وهلمّ جرًّا ومع ان هذه الاسعار هي اسعار الحاجيات في ضواحي بيروت لا نظن ان اسعارها في البلدة نفسها كانت تختلف عنها كثيراً . وكان اذا توفر لدى الواحد من ابناء بيروت ٥٠٠ غرش قيل « قنطر فلان » واذا جمع الالف قيل « الف »

وقد حفظ لنا قنصل فرنسا في بيروت في ذلك العصر دخل حكومة بيروت على التقريب فقال انهُ لم يتجاوز في سنة ١٨٣٠ الـ ١٤٠١٣٥٠٠ غرش منها ٤٥٠٠٠ من جمرك البحر و٧٠٠٠ من جمرك البر و٢٥٠٠٠٠ من ضرائب فوقانية تأتي من حيث لا يعلم البيروتي وتذهب الى ٥٠٠٠ و٥٠٠٠ من الصباغين و ٩٠٠٠ من الدباغين و٢٠٠٠ من تجار الحنطة و١٠٠٠٠ من الحمامات و٣٥٠٠ من الفحم و٢٠٠٠ من خان الامير يوسف و ١٠٠٠٠ من التنباك والتتن و ١٢٠٠٠ من الحرير و ١٧٥٠٠ من الملح و ١٥٠٠٠ من الخراج

ولم تكن صناعة بيروت على شيء من الاهمية فانه لم يكن فيها سوى بعض الانوال الحريرية والعدد اليسير من الدباغين والصباغين . وكان من اكبر دلائل هذا الانحطاط الاقتصادي عدم وجود العجلات والمركبات . فالبيروتيون عرفوا الدولاب لكنهم لم يستعملوهُ قطّ . والدولاب كما لا يخفى من اختراع جدودنا اتحفوا العالم والتمدن به حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل المسيح فتأمل ! هذه هي بيروت كما وجدها ابراهيم باشا عند ما افتتحها عام ١٨٣١ فلننتقل الان الى ذكر اعماله فيها واعمال الامير محمود نامي بك حاكمها في ايامه

نظر محمد علي باشا بعينه الثاقبة الى مصر وسورية في الربع الاول من القرن الماضي فادرك ارتباطهما الاقتصادي الشديد وعول على ضمهما معاً وجعلهما بلاداً واحدة (اطلب مقالنا في هذا الموضوع في مجلة المقتطف ج ٦٦ و ٦٧) وارسل عام ١٨٣١ ابنه ابراهيم لافتتاح عكة وسائر البلدان الشامية وصار ما صار من الحروب والوقعات التي انتهت في عام ١٨٣٣ بتعيين محمد حاكماً عاماً على جميع ايالات سورية وضمها جميعها الى ما كان لديه في مصر و بلاد العرب . ولما تم له ذلك نظر نظرة ثانية الى القطر السوري فادرك اهمية موقع بيروت التجاري واقام عليها حاكماً من خيرة رجاله واشدهم نباهة اعني به الامير محمود نامي جد سمو الامير احمد نامي (رئيس الحكومة السورية حالاً) ووالد الامير فخري المشهور . فكان عمله هذا مظهراً آخر من مظاهر فطنته ونبوغه وعملاً واحداً من مئات من اعماله الصالحة في هذه البلاد

ولد الامير محمود نامي حوالي سنة ١٨٠٠ م في جبال القوقاس الشمالية من ابوين عريقين في الشرف والوجاهة . وكان اخوه الاكبر احمد امير قبيلة الجابسيغ الجركسية . ولما اكتسحت روسية موطنه في اوائل القرن الماضي وضمته الى سلطنتها ابى الامير محمود ان يقبل الذل في بلاده وهاجر مع فريق من اقرانه الى مصر وهناك تلقى العلوم الابتدائية وشيئاً من العلوم العالية ايضاً وانتظم بعدئذٍ في سلك المدرسة البحرية التي انشأها محمد علي باشا في مدينة الاسكندرية . ولما عزم «عزيز» مصر على ارسال بعض ضباط بحريته الى فرنسا وانكلترا لاتمام علومهم وممارسة الفنون الحربية انتخب حسن افندي الاسكندراني وشنان افندي والامير محمود نامي وارسلهم الى فرنسا فتلقى محمود علومه العالية فيها وتخصص في الرياضيات . ولما رجع من فرنسا عينه محمد علي باشا محافظاً على بيروت وابقاه في هذا المنصب سبع سنوات (١٨٣٣ — ١٨٤٠) تنشقت بيروت في خلالها نسيماً منعشاً من الغرب المتمدن فاستيقظت من سبات العصور الوسطى وخطت خطوتها الاولى في سبيل رقيها الحديث

وكان محمد علي باشا وابنه ابراهيم وعامله الامير محمود نامي لبيروت اول العثمانيين الذين اخذوا الافكار الحديثة فيما يتعلق بالحكومة والادارة . وهم ايضاً كانوا اول من وضعها موضع الاجراء . نعم ان سلطتهم في بيروت كانت مطلقة ولكنهم احكموا التدبير واحجموا عن الحكم الاستبدادي فشكلوا في هذه المدينة من سكانها مجالس تباحثوا مع اعضائها في

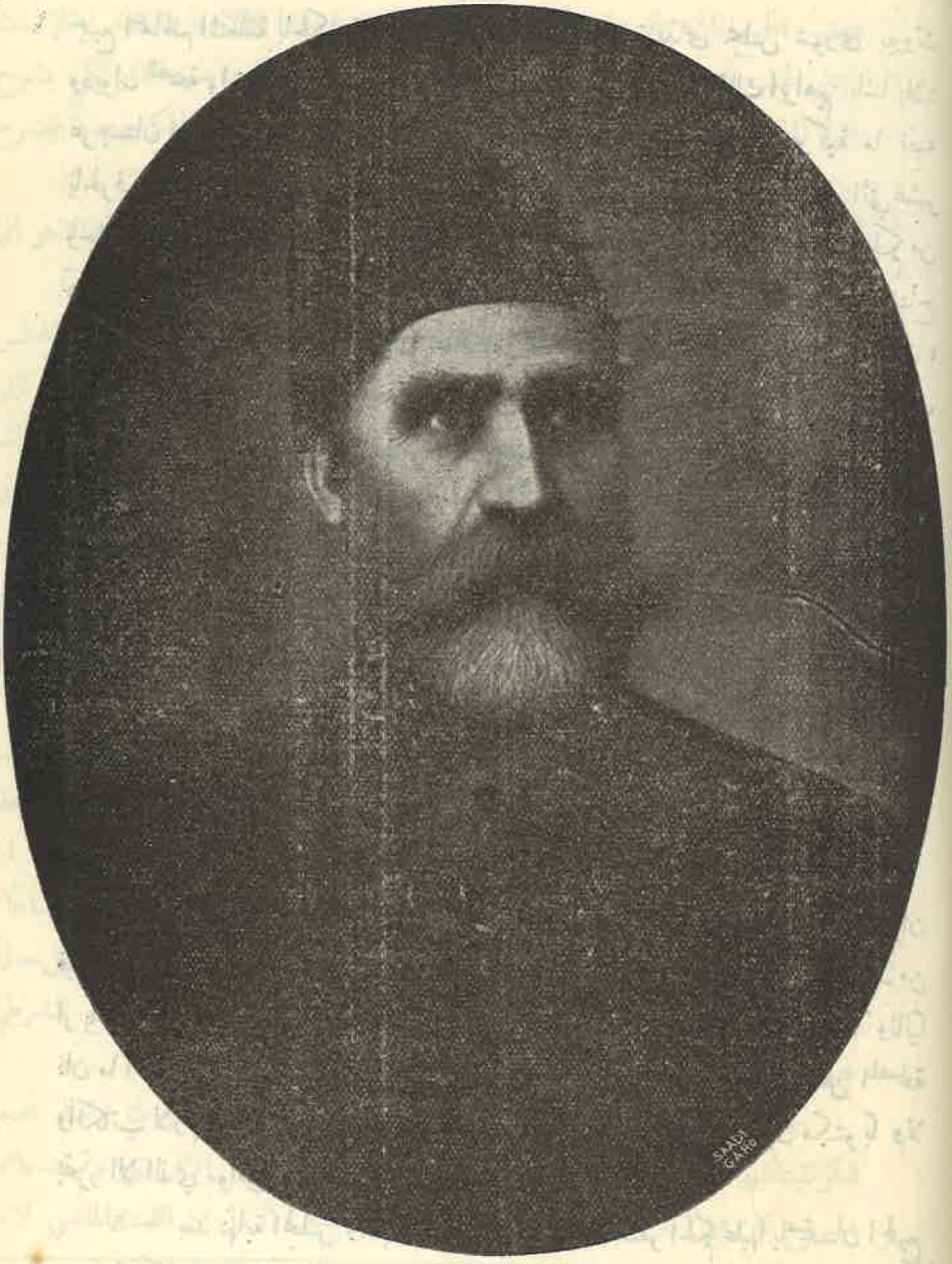

الامير محمود نامي محافظ بيروت في عهد ابراهيم باشا

جميع اعمالهم المتعلقة بالحكومة . فكان هناك مجلس للمشورة يدعى مجلس شورى بيروت وديوان للصحة واخر للتجارة . قال المؤرخ المجهول صاحب « خبر تملك ابراهيم باشا بلاد عربستان » في مخطوطته الموجودة الان في بكركي وفي جامعة بيروت الاميركية ما نصه بالحرف : وفي ١٤ رمضان امر ابراهيم باشا يصير ديوان مشورة في بيروت وجعل اثني عشر رجل من اكابر بيروت اصحاب فطنة والمتسلم لا يبدي بشيء الا بما يبرز به الحكم من ديوان المشورا بموجب كتابة منه الى ارباب الديوان المذكور وهم ستة اسلام عبد الفتاح حماده ناظر المجلس وعمر بيه (بيهم) ، احمد العريس ، حسن البربير ، امين رمضان ، احمد جلول وستة نصاره وهم جبرايل حمصي ، بشاره نصرالله ، الياس منسا ، ناصيف مطر ، يوسف عيروت ، موسي بسطرس وترتيب الديوان المذكور

١ — تعيين وقت معلوم كل يوم الي حضور ارباب المجلس وعند حضورهم يحرر الكاتب اسماؤهم بقائمة برتبة حضورهم لا برتبة مقامهم

٢ — الكاتب يحرر كل يوم الاشغال الموجودة عنده وحين يحضروا ارباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم الى يوم

٣ — اذا كانت هذه الاشغال لا تنتهي في ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثاني يوم قبل الوقت المعين بزمان كافي لنهيها

٤ — الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تتقيد في اعماله بل في اليوم الذي تنتهي فيه

٥ — حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خبير بها من ارباب الديوان قبل الجميع وبعده يأخذ رأي الباقي بحيث لا يبقى احد بدون تكلم واذا وجد واحد من ارباب المجلس تكلم مع اخر في حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب اولاً وثانياً فان ما افاد فليحرر في مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل احاديث خارجة عن المصلحة والكاتب لازم يحرر كلما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شيء وكلما يتقرر يكون مكتوباً ولا يحرر الا الذي موافق الحق

٦ — بعد نهاية المجلس وتمام المصالح التي نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحررها الكاتب بمسودة وثاني يوم يبيضها ويوجهها لمحلاتها وبعد ذلك تتقيد في سجل المجلس والخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم للمجلس لكي بعد نهايته يقرأها

بحضور الجميع فان استحسنوا رأياً اوفق من الذي تقدم فيغيروا الخلاصة وتتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة و بعد القيد تصل الى صاحب الامر لكي يشرح عليها الى اصحابها امراً باجراء ما يتضمن في الحكم واذا ما كان سعادة الحاكم موجوداً فيشرح من طرف متسلم اغا

٧ — الكاتب يمسك دفترين الواحد الى ... المجلس المتضمنة التقرير والاخر الى الخلاصة من بعد ... و يلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس ايضاً اه

وكان الامير محمود يحترم القانون ويحب النظام فسعى سعياً حثيثاً لنجاح هذه المجالس وعوّد البيروتيين النظام في الاعمال بعد ان ألفوا الفوضى قروناً متوالية فبعد ان كانوا يعاملون بالعنف والشدة وضروب الجور من متسلمي عبدالله باشا وسليمان باشا واحمد باشا الجزار وجنودهم الارناؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام صاروا يرون في محافظهم [1] الجديد رجل النظام والتنسيق الذي يهتاب سلطة من هو ارفع منه و يحترم حقوق من هو ادنى منه . ولا يزال لدينا في مجموعة جامعة بيروت الاميركية عدد وافر من اوراق حكومة بيروت في عهده يشهد له برقيهِ الادبي والاخلاقي وبحبه للنظام ومحافظته على القانون

وعني الامير محمود عناية تامة اول مرة في تاريخ بيروت الحديث بحفظ النظام في البلدة وصون الامن فيها . ويظهر من بعض اوراقه الباقية انهُ ادخل الى بيروت نظام الشرطة الذي كان معروفاً ومعمولاً بهِ في القاهرة في ذلك العصر فعين ضابطاً للشرطة واجبره ان يقوم مع اعوانه في اثناء الليل بالتناوب و يلقي القبض على كل شخص لا يحمل بيده مصباحاً . وكانت عادة هؤلاء الشرطة ان يوجهوا الى كل من نظروه من ابناء السبيل في الليل مسلماً كان ام نصرانياً السؤال الاتي : من هذا ؟ فيجاوبهم : ابن البلد . فيصيح الشرطي حينئذٍ و يقول لهُ : « وحّد الله » [2] فيقول هذا : لا اله الا الله

ولما صدر امر والي مصر بذاك العهد بتشكيل مجلس للصحة في بيروت و بناء محجر للكرنتينا فيها شرع الامير محمود في تنفيذه بمساعدة المسيو غويس الافرنسي وتم بمسعاهما مشروع كان من اكبر اسباب نمو المدينة وتقدمها في النصف الاول من القرن الماضي لانهُ

---

(١) ان لقب المحافظ كان يطلق على الحاكم يومئذٍ كما هو اليوم (٢) ولا تزال هذه المنادات شعار الخضر في ارياف مصر الى يومنا هذا

لمّا صارت بيروت مركز ادارة الصحة في الساحل اضطرت جميع المراكب الاجنبية والوطنية ان تأتي اليها اولاً للفحص والضبط . وهو هو الذي بلط اسواق بيروت الحديثة لاول مرة ورتب امر الرش والتكنيس فيها وهاك ما قاله في كتاب له ارسله الى احد قناصل الدولة بتاريخ ٦ جمادى الاخر سنة ١٢٥٦ : « الجناب الاكرم حضرة المحب الاجل المحتشم — معلوم محبتكم وجود الحرّ مع وجود الاوخام عمال يحصل التشويش فلاجل صحة العموم نبهنا على (الطواف) ان يجول في البلدة لاجل الكنس والرش بالاسواق والحارات وبحيث البعض من رعايا وحمايات دولتكم يتوقفوا على الكنس والتنظيف ولا يمتثلوا الى تنبيه (الطواف) ومن حيث عائد ذلك لصحة العموم اقتضى تحريره لمحبتكم لكي تنبهوا على رعايا وحمايات دولتكم ان يرتّبوا قبال مخازنهم ودكاكينهم ومحلاتهم على الدوام لاجل حسن المناخ وهذا ما ترغبوه محبتكم والله يحفظكم مير محمود محافظ بيروت

واليه ايضاً يرجع بعض الفضل ان لم يكن كله في بناء القناطر — لا الركائز — فوق نهر بيروت وتجديد رصيف المرفإ القديم بعد ان كان قد اهمل زمناً طويلاً وكانت هذه الاشغال العامة وغيرها في بيروت وفي سائر القطر السوري باعثاً على استيراد العجلات فدخلت وشاع استعمالها منذ ذلك الحين ودخلت سنة ١٨٣٣ عربة المستر فرن الى البلاد وكانت هذه الاولى من نوعها . ولما استتب الامن في البلاد ونشر لواء العدل فيها ازداد عدد الاوروبيين في هذه البلدة وازداد احتكاك الاهلين بهم فنتج عن ذلك ادخال الزي الاوروبي في هندسة المساكن والبنايات العمومية وشاع استعمال الاثاث الافرنجي فيها فابتاع البيروتيون الاسرة والخزانات والكراسي والطاولات واقتنوا الصحاف والشوك والسكاكين والملاعق الافرنجية . ولما كان الجيش في عهد ابراهيم باشا هو الكل في الكل كان من المنتظر ان يسري تأثير التعديلات التي تطرأ عليه الى عامة الشعب وهكذا كان . فان تأثير التعديلات التي طرأت على لباس الجيش مرت وتناولت لباس الشعب ايضاً فحذفت العمامة من لباس الرأس وقل الاقتصار على لبس الجبب والقنابيز وادخلت الطرابيش المغربية والصدريات وكبابيت التفتيك وتغيرت الاذواق في امر الالوان تغيراً محسوساً ايضاً . فبعد ان كان البيروتي ميالاً الى شراء الثياب ذات الالوان الفلحة كالاحمر والبنفسجي اخذ يهجرها شيئاً فشيئاً و يتخذ الاسود والكحلي منها . وشاع ايضاً في هذه الفترة من تاريخ بيروت استعمال الكلسات وتركت « المزود » وتوابعها واتسع نطاق التجارة اتساعاً يذكر

رسم الامير احمد نامي وهو بالطربوش المغربي الاخ الاكبر للامير محمود نامي

فبعد ان كان دخل الحكومة مليوناً من الغروش فقط ارتفع سنة ١٨٣٥ الى الـ ١٨٨٢١٠٠ وفي سنة ١٨٤٢ الى الـ ٣٩٣٠٨٨٨ و بعد ان كان دخل الجمارك البحرية سنة ١٨٣٠ لا يتجاوز الـ ٤٥٠٠٠٠ ارتفع في سنة ١٨٤٢ الى الـ ٣١٨٥٠٠٠ وهبط دخل الضرائب « الفوقانية » من ٢٥٠٠٠٠ الى ٩٢٠٠٠ فقط فتأمل

هذه كلمة سطحية في بيروت في عهد ابراهيم باشا قدمناها قبلاً الى قراء المرأة الجديدة ونقدمها الان الى قراء هذه المجلة ونحن شاعرون باننا لا نزال بعيدين عن البحث العلمي الدقيق الذي كنا ولا نزال نتوخاه ونرمي اليه ولكننا وجدنا مع صديقنا الاستاذ محمد رفعت في دار المعلمين العليا بمصر القاهرة ان الاحجام عن نشر ما يتهيأ لدينا من آن الى آخر لمجرد الاعتقاد بانهُ دون ما نبغي مما يؤدي الى الجمود العلمي الذي لا يتفق مع سنة النشوء والارتقاء

ان العلوم وان توارثها العلماء ناقصة لا يلبثون ان يورثوها غيرهم وافية بقدر المستطاع والسلام